الحقول الدَّلالية في الشِّعر الوطني والقومي لدى إبراهيم طوقان

وصال رهيف الحبال المشرفة: الأستاذة الدكتورة روعة الفقس

ملخص البحث

يتناول هذا البحث الحقول الدَّلالية الّتي برزت في الشِّعر الوطني والقومي لدى إبراهيم طوقان، متتبعًا الألفاظ ودلالاتها في السّياق الشّعري في محاولة فهم العلاقات الدَّلالية الّتي تربط بين الحقول الدَّلالية، ما يتيح إمكانية الكشف عن دور الحقول الدَّلالية في إبراز رؤية الشّاعر.

ويحاول البحث الكشف عن دور الحقول الدَّلالية وأهميتها في السِّياق الشِّعري، وعن أبرز الأنساق الثَّقافية الّتي تجلَّت من خلال تتبَّع مفردات الحقول الدَّلالية.

الكلمات المفتاحية:

إبراهيم طوقان، الدَّلالة، الشِّعر الوطني، الشِّعر القومي.

Semantic fields in national and national poetry according to Ibrahim Toukan

Abstract

This research deals with the semantic fields that emerged in Ibrahim Toukan's national and national poetry، tracing words and their connotations in the poetic context in an attempt to understand the semantic relationships that link semantic fields، allowing the possibility of revealing the role of semantic fields in highlighting the poet's vision. The research tries to reveal the cultural patterns highlighted by the semantic fields، and the manifestations of these patterns were represented in the poem (Greeting Egypt) by referring to the flags of Egyptian culture، and the history of the Egyptian people، which highlights the nationalism of the poet.

مقدمة:

لعلَّ مصطلح (الحقل الدَّلالي) مصطلحٌ حديث ظهرَ في عشرينيات القرن العشرين، وتحديدًا في سنة (1924)م على يد عالم اللّسانيات الألماني إبسن(Henrlk Johan Ibsen) (1828-1906)م، ويقوم هذا المصطلح على تتبّع المفردات في النّص الأدبي وإدراجها في الحقول الَّتي تنتمي إليها، وقد فطن اللغويون والنُّقاد في التُّراث العربي إلى هذا المصطلح من غير أن يذكروه صراحة، وقد تجلّى ذلك في مؤلفاتهم الّتي اشتملت على أكثر من مجال دلالي، مثل كتب الصّفات، وكتب الغريب، وكتب الألفاظ.

تتداخل الحقول الدَّلالية فيما بينها في النصِّ الأدبي بعلاقاتٍ دلاليةٍ، أبرزها: علاقة التَّضاد، وعلاقة الاشتقاق، وعلاقة التَّرادف، وعلاقة الاشتمال، وسنحاول في هذا البحث الوقوف عند الحقول الدَّلالية في بعض قصائد إبراهيم طوقان، والكشف عما يحكمها من علاقاتٍ دلالية من شأنها أنْ تبرز المعاني والدَّلالات الّتي حرص الشَّاعر على التَّعبير عنها في قصائده.

أهمية البحث ومشكلته:

تبرز أهمية البحث في الكشف عن دور الحقول الدَّلالية في إبراز جمالية الخطاب الشِّعري لدى إبراهيم طوقان، فضلًا عن دورها في تجسيد رؤيته الفكريِّة.

أما مشكلة البحث فتتجسَّد في صعوبة الإحاطة بجميع قصائد إبراهيم طوقان، وقد حاولتُ تجاوز هذه المشكلة بالوقوف عند أبرز الحقول الدَّلالية الَّتي تجلّت في شعره، مثل حقل الظُّلم، وحقل الموت، وحقل الحزن وغير ذلك.

هدف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تتبّع المفردات المنضوية ضمن الحقول الدَّلالية في سياقها الشّعري، ليكشف عن رؤية الشّاعر وموقفه الفكري، وشعرية قصائده الوطنية والقوميَّة.

الدِّراسات السَّابقة:

شغل إبراهيم طوقان اهتمام الباحثين والنُّقاد فتركوا دراساتٍ عدة تتناول حياته وشعره، من أبرزها: كتاب كنوز إبراهيم طوقان، أوراقه ودراسات في شعره ورسائله للمتوكل طه الّذي قدّم في كتابه دراسةً وافيةً حول شعر إبراهيم طوقان، مُبيّنًا أبرز سماته الفنيّة، وخصائصه الأسلوبية، وقد خلصَ المتوكل طه في هذا الكتاب إلى نتائج عدة، لعلَّ من أهمها حرص الشّاعر على تجسيد السُّخرية في قصائده ولا سيما الوطنية منها، وإفادة إبراهيم طوقان في بناء قصائده من التراث العربي القديم.

ومن الدِّراسات المهمة الّتي تناولت شعر إبراهيم طوقان فنيًا وموضوعيًا، نذكر: رسالة الدكتوراه الّتي أعدها حسام يحيى إسماعيل أحمد بعنوان (شعر إبراهيم طوقان: دراسة صرفيّة نحويّة دلالية.) تتبَّع الباحث في رسالته البنى الصَّرفية والتَّراكيب النَّحوية في شعر إبراهيم طوقان مؤكدًا دورهما في تشكيل رؤية الشَّاعر ضمن النَّسق الشّعري.

ومن الدِّراسات الّتي تناولت الحقول الدَّلالية في الشّعر، منها: الحقول الدَّلالية في شعر لبيد بن ربيعة: دراسة نظرية تطبيقية، لزينب زياد دسوقي البغدادي، تناولت البنية الدَّلالية في شعر الشَّاعر خاصة في معلقته الشَّهيرة، ووظفت هذه الحقول بشكل يعكس رؤيته الفلسفية والعاطفية، لتؤكِّد الدِّراسة أنّ شعر لبيد بن ربيعة يحمل نزعة تأملية وجودية، إذ يحضر الموت كحقيقة كبرى في معظم الحقول الدلالية في شعره.

أسئلة البحث:

1- ما الحقول الدَّلالية الّتي برزت في الشِّعر الوطني والقومي لدى إبراهيم طوقان؟
2- ما دور الحقول الدَّلالية في التّعبير عن رؤية الشَّاعر إبراهيم طوقان؟
3- ما أثر العلاقات الدّلالية في تشكيل جمالية الشِّعر الوطني والقومي لدى إبراهيم طوقان؟
4- **حدود البحث:**

1- حدود زمانية: العصر الحديث.
2- حدود مكانية: فلسطين، لبنان، سورية.

3- حدود موضوعية: الاحتلال البريطاني لفلسطين، وهجرة اليهود إليها، والاحتلال الفرنسي لسورية.

منهج البحث:

يتخذ البحث المنهج الوصفي التّحليلي منهجاً له؛ إذ يقوم على تتبّع الحقول الدَّلالية في الشِّعر الوطني والقومي، وتحليل العلاقات الدّلالية المرتبطة بها مثل التَّضاد والاشتقاق والاشتمال ممّا يكشف عن دورها في إبراز جمالية النّصِّ الشّعري ورؤية صاحبه.

تمهيد:

ظهر مصطلح الحقول الدَّلالية على يد (هنريك إبسن) الّذي عمد إلى تصنيف " مجموعة من الكلمات الّتي تشكّل معًا معنىً موحدًا، وهي الكلمات الّتي تتصل بالأغنام، وترتيبها في لغات الهند وأوربة، وإن كانت هذه الكلمات لا ينتمي بعضها إلى بعض اشتقاقيًا، وليس لها علاقة ارتباط معينة، وإنَّما كلّ ما في الأمر أنَّها توجد جنبًا إلى جنب مثل حجارة الفسيفساء"[1].

وتعاقبت ـ بعد إبسن ـ الدِّراسات والبحوث في الحقول الدَّلاليّة، وكثرت التّعريفات الّتي حاولت تحديد مصطلح الحقل الدَّلالي، منها تعريف ستيفن أولمان(Stephen Ullmann) (1914-1976)م[2] الّذي عرّف الحقل الدَّلالي بأنَّه " قطاعٌ متكامل من المادة اللّغوية يعبّر عن مجال معين

[1]ينظر: التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه: كريم زكي حسام الدين،ج1، ط1، دار غريب، القاهرة، 2000م، ص122. وينظر: المتن اللغوي وتشكيلاته الدلالية في النص الشعري عند نزار قباني: هايل الطالب، رسالة دكتوراه بإشراف: رضوان القضماني، جامعة البعث، حمص، 2004م، ص 158.

[2] ستيفن أولمان: باحث في الرومانسية، وفقيه لغة، ولغوي من المجر، من أهم أعماله: (دور الكلمة في اللغة)، (الصورة في اللغة) .arz.m.wikipedia.org

من الخبرة"[1]. أما جورج مونان(georges Mounin) (1910–1993)م[2] فقد عرّفه بأنَّه " مجموعة من الوحدات المعجميّة الّتي تشتمل على مفاهيم تتدرج تحت مفهومٍ عامٍّ يُحدِّد الحقل"[3]. نستدلُّ من هذا التّعريف بأنَّ الحقول الدَّلالية تعني أنْ تُصنّفَ كلَّ كلمةٍ أو لفظٍ ضمن معنى عام، فكلمة (إنسان) ـ على سبيل المثال ـ لفظ عام يشملُ ألفاظًا أخرى مثل (ذكر، أنثى، طفل، طفلة، ولد، أستاذ، طبيب، شاعر...) واستنادًا إلى ذلك لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الدِّراسات اللُّغويّة في التُّراث العربي القديم قد عُنّيت بهذا المجال الدَّلالي بيدَ أنَّها لم تذكر مصطلح الحقول الدَّلالية، فقد رأى كريم زكي حسام الدين[4] أنَّ اللّغويين المسلمين الأوائل قد فطنوا إلى نظرية الحقول

الدَّلالية إذ وضعوا في مصنفاتهم مجموعة من الكلمات والمعاني الّتي تنتمي إلى مجالٍ دلاليٍّ واحدٍ، مثل: الإبل، والخيل، والشَّاء، والحشرات، والنّبات، والشَّجر، والمطر، و وضعوا مؤلفاتٍ تشتمل على أكثر من مجال دلالي، مثل كتب الصّفات، وكتب الغريب، وكتب الألفاظ[5].

وذهب منقور عبد الجليل[6] إلى أنَّ " الآمدي (ت631هـ) من أوائل العلماء الّذين أسسوا أفكارًا لبناء حقول دلاليّة، وإنْ لم يشر إلى ذلك صراحةً إلَّا أنَّ ما أرساه من قواعد وقيود تنظيميّة في هذا

---

[1] علم الدلالة: أحمد مختار عمر، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1988م، ص79.

[2] جورج مونان: لغوي، ومترجم، وسيميائي فرنسي، من أعماله: (المسائل النظرية في الترجمة)، (معجم اللسانيات). ar.m.wikipedia.org.

[3] أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية: أحمد عزوز، اتحاد الكتاب العرب– دمشق، 2002م، ص12.

[4] كريم زكي حسام الدين: باحث مصري، وأستاذ في اللّغة والأدب العربي، من مؤلفاته: (الزّمان الدّلالي: دراسة لغوية لمفهوم الزّمن وألفاظه في الثّقافة العربية)، (اللّغة والثّقافة: دراسة أنثرولغويّة لألفاظ وعلاقات القرابة في الثّقافة العربية)، (التّحليل الدلالي: إجراءاته ومناهجه في جزأين)، (الإشارات الجسميّة: دراسة لغوية). جامعة بنها . http://bu.edu.eg/staff/ kareemz

[5] التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه: كريم زكي حسام الدين، ص130.

[6] منقور عبد الجليل: أستاذ في علوم اللّغة والنقد والأدب العربي، من مؤلفاته: (علم الدّلالة: أصوله ومباحثه في التراث العربي)، (المقاربة السيميائية للنّص الأدبي: أدوات ونماذج)، (النّص والتأويل: دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي). Scholar.google.com

المجال يمكن اعتماده لوضع حقول مفهوميّة تصور لنا بشكل علمي وواضح الوشائج الّتي تقوم بين مفردتين أو أكثر"[1]. ويؤكّد منقور عبد الجليل هذا الرّأي بذكر بعض المعايير الّتي وضعها الآمدي في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) والّتي تدخل في بناء الحقول الدلاليّة، وهي معيار المشترك اللّفظي، والعموم والخصوص، والكُل والجزء، والتّرادف[2]، وغيرها من المعايير، وعلى الرّغم من أهمية ما ذهب إليه الباحثان كريم زكي حسام الدّين ومنقور عبد الجليل من رأي يتعلّق بحضور الدّرس الدّلالي في التّراث العربي القديم إلّا أنّه فاتهما أمرٌ مهم وهو أنَّ العلماء العرب الأوائل قد اكتفوا بتصنيف الألفاظ المنضوية ضمن معنى عام وتحديد ما يحكمها من معايير من غير أنْ يطبقوا ذلك على النّصوص الأدبيّة، وهذا ما يجعل دراساتهم قاصرة عن نظرية الحقول الدَّلاليّة الحديثة الّتي تُعنى بتَتَبُّع الألفاظ وتصنيفها وتحديد علاقاتها الدَّلالية في نصٍّ من النُّصوص على أساس أنَّ النّص يشكّل وحدة دلاليَّة كبرى.

الشاعر إبراهيم طوقان:

ولد إبراهيم طوقان في سنة(1905)م في نابلس، ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت، وتخرج فيها سنة(1929)م ليعود، بعد ذلك إلى وطنه، مدرِّسًا في مدرسة النَّجاح الوطنية، بيد إنَّه لم يدرّس فيها إلَّا عامًا واحدًا، إذ يقرّر السفر إلى بيروت ليدرّس في الجامعة الأميركية في قسم الأدب العربي.

بعد تأسيس إذاعة القدس في عام(1936)م، عُيّنَ إبراهيم طوقان مدير البرنامج العربي فيها.

[1] علم الدلّالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: منقور عبد الجليل، ط1، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ـ سورية، 2001م، ص196.

[2] ينظر: علم الدلّالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: منقور عبد الجليل، ص 197.

اهتَّم إبراهيم طوقان منذ مراهقته بالشِّعر، ثم برعَ فيه، فترك قصائد كثيرة يندرج معظمها تحت مسمّى الشِّعر الغزلي، والشِّعر الوطني.

توفي إبراهيم طوقان في سنة(1941)م.[1]

الحقول الدَّلالية في الشّعر الوطني والقومي لدى إبراهيم طوقان:

يختلف الشِّعر الوطني عن الشِّعر القومي من حيث أنَّ الأوَّل يخصُّ الوطن أو البلد الّذي ولد الشَّاعر ونشأ فيه، أما الثَّاني فيتجاوز ذلك ليشمل بلدانًا أخرى تشارك بلده وترتبط به بروابط وثيقة مثل اللَّغة والدِّين والتَّاريخ وغير ذلك، وعلى هذا الأساس، فإنَّ ما كتبه إبراهيم طوقان من شعر يخصُّ فلسطين فهو شعرٌ وطني، وما نظمه من قصائد تدور موضوعاتها حول شخصيات عربية غير فلسطينية، أو مقاومة الاستعمار في بلدان عربية مثل سورية ومصر ولبنان فهي قصائد تندرج ضمن الشِّعر القوميّ.

وقد شغلت القضايا الوطنيّة والقوميّة فكر الشَّاعر إبراهيم طوقان، فكثرت في ديوانه قصائد أبرزت عمق انتمائه الوطنيّ، وصدق شعوره القومي، فقد بلغ عددها أربعًا وخمسين قصيدة من مجموع قصائد الدِّيوان البالغ عددها مئة وعشرون قصيدة.

وقبل البدء بتحليل الحقول الدَّلاليّة في الشِّعر الوطني والقومي لدى إبراهيم طوقان لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الفصل بينهما هو فصلٌ منهجي فرضته طبيعة البحث الّتي تقوم على تتَّبع الألفاظ المنضويّة ضمن حقولها الدَّلالية، وتحليل مدلولاتها في السِّياق الشِّعري ممَّا يفضي إلى إبراز دورها مع غيرها من عناصر البنيّة اللَّغويّة في الخطاب الشِّعري لدى إبراهيم طوقان.

أولًا: الحقول الدَّلاليّة في الشِّعر الوطني:

[1] ينظر: حياته ودراسة فنية في شعره: محمد عبد الله، إبراهيم طوقان، ط1، مؤسسة البابطين للإبداع الشعري،2002م، ص14-15.

تعدَّدت الحقول الدَّلالية وتنوعت في الشِّعر الوطني لدى إبراهيم طوقان، ما يصعب الإحاطة بها كلِّها، ولذلك حاولنا في هذا الفصل الوقوف عند أبرز الحقول الّتي جسَّدت مقولات دلالية مهمة يمكن لها أنْ تكشف عن رؤية الشَّاعر، ودور الألفاظ المنتظمة في بنيتها التَّركيبية وفي سياقها الشِّعري في إبراز جمالية الخطاب الوطني.

تكشف الحقول الدَّلالية المهيمنة في المتن اللُّغوي لقصيدة (يا سراة البلاد) رفض إبراهيم طوقان الظُّلم والاضطهاد، والّذي تجلَّى بوساطة حقلين دلاليين مهمين برزا بروزاً جلياً و واضحاً، وهما:

1- حقل الظُّلم:

تبدَّى هذا الحقل بوساطة الألفاظ (انتداب، أعداء، تخدعون، فسادا، استعباد).

2- حقل الموت:

برز هذا الحقل من خلال الألفاظ الدَّالة عليه، وهي: (السَّيف، المنايا، الجراح، قتلتْ، بادت.)

وممَّا لا شك أنَّ المتنَ اللُّغوي للقصيدة لا يقتصر على الألفاظ المنضوية ضمن هذين الحقلين الدَّلالين، فقد استعان الشَّاعر بألفاظ تندرج في حقول دلاليّة أخرى لتوظّيفها في تنبيه الشَّعب الفلسطيني وتوعيته ممَّا يحيط به من خطبٍ جلَل، ويمكن أنْ نستدلَ على ذلك بلفظ (بلفور) وهو لفظٌ ينتمي إلى الحقل الدَّال على العلم، وقد جاء في سياقٍ انتظمت فيه الألفاظ الدَّالة على الموت، يقول الشَّاعر:

(انتدابٌ أحدُّ مـن شفـرة السَّيفِ وأورى مـــــن المـنايا زِنـــادا
وعـــدُ بَلفـــورَ دكَّهـا فلـماذا تجعـــلونَ الأنقاضَ منها رمادا
ما الذي تفـــعلون والجوُّ مُرْبَدٌّ وهــذي الأعداءُ تقضي المرادا)[1]

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص23.

إنَّ لفظ (بلفور) يخرج من دلالته الأصلية بوصفه اسمًا دالًا على العِلْميَّة إلى دلالاتٍ ثانوية رسَخت في الذُّهنية العربيّة، مثل اغتصاب فلسطين، والظُّلم، والاستعمار، والكذب والنِّفاق وغير ذلك من الدَّلالات الّتي تمحورت حول أمرين مهمين، يتعلّق الأوَّل منهما بهجاء بلفور والإشارة إلى خطر وثيقته الّتي وعد فيها اليهود بإنشاء وطن لهم في فلسطين، أما ثانيهما فمرتبطٌ بحرص الشّاعر على تنبيه الشَّعب الفلسطيني بخطورة هذا الوعد المشؤوم، واستنكاره: **(فلـماذا تجعلون الأنقاض منها رمادا) و(ما الَّذي تفعلون والجوُّ مربدٌّ)**

وعلى هذا الأساس، يخلص إبراهيم طوقان من التَّنبيه إلى خطر وعد بلفور إلى استنكار بيع الأراضي للعدو ممَّا يكشف عن رؤية فكريّة للشّاعر تتَّسم بالوعي والمسؤولية تجاه وطنه، إذ لم يكتفِ بالإشارة إلى ظلم الانتداب البريطاني فقط، بل عمد أيضًا إلى إبراز ظلم السَّماسرة وجشعهم، وفي ذلك يقول:

(بعتمــوه إلى العـــــدوّ فمـــن أَيْـــنَ يـــــلاقــون ملجـــأً ومهـــــادا

أنتمُ اليـــــومَ تزرعـــون فســـــادًا وغدًا ســـوف يُثمر استــعبادا

يا سماءُ انقــضّي و يــا أرضُ مِيدي قتلتْ أُمّـــةً وبادت بـــلادا)[1]

تتضافر الألفاظ الدَّالة على حقلَيْ الظُّلم والموت (العدو، فسادا، استعبادا، قتلت، بادت) في هذه الأبيات في سياقٍ شعري يظهر ارتباط بعضها ببعضها الآخر بعلاقةٍ دلاليةٍ تقوم على مبدأ السَّببية، فظلم الانتداب البريطاني، وطمع السَّماسرة يفضيان إلى موت الأمة، وإبادة البلاد، وبرزت العلاقة السَّببية أيضًا في عبارتي: (تزرعون فسادًا) و (يثمر استعبادا).

وبرزت علاقة دلالية تقوم على مبدأ الاشتمال الّذي تجسَّد بوساطة الاستدعاء، أي إنْ دلالة لفظٍ تتطلب معاني ودلالاتٍ أخرى، ومثلُ ذلك الفعل (قتلت) الّذي يستدعي دلالة الموت.

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص23.

ونخلص من ذلك كلّه إلى القول بأنَّ هيمنة حقلَيْ (الظلم والموت) على المتن اللُّغوي لهذه القصيدة، وتضافرهما مع غيرهما من الحقول الدَّلالية الأخرى قد أفاد في تجسّيد رؤية فكرية تتمثّل في الدَّلالة على حسٍّ وطنيٍّ واعٍ للشَّاعر إبراهيم طوقان، وعلى عمق انتمائه لوطنه.

وفي قصيدة (تفاؤل والأمل) فنجد أنَّ التَّشكيلات الدَّلالية لمفردة (الوطن) قد تمثَّلت وفق الآتي:

- **نكرة:** (وطنٌ يباع ويشترى)
- **معرفة:** (فليحي الوطن)
- **منادى مضاف إلى ياء المتكلم حُذفت أداته:** (وطني) جاءت مرتين، و(موطني) مرة واحدة،

ووطني أخصُّ في الدَّلالة من موطني وهي أعم.

وقد أفادت دلالة الوطن بعض الألفاظ في المتن اللُّغوي للقصيدة، وهي: (البلاد، الدِّيار، بلادكم)

إنَّ التَّشكيلات الدَّلالية لمفردة (الوطن) قد اختلفت دلالاتها وتنوعت تبعًا لاختلاف موضعها السِّياقي والتَّركيبي، إذ أدت ياء المتكلم في التَّركيب النِّدائي (وطني) والتّركيب الإضافي (موطني) وظيفة دلاليّة مهمة تمثّلت في تأكيد ارتباط الشَّاعر بوطنه وتمسكه به فضلًا عما أفادته من دلالة تبيّن تفاؤله وإيمانه به، ولاسيَّما أنَّ التَّركيب الإضافي (وطني) قد كُرر أكثر من مرة، وذلك في قوله:

(وطني أزُفُّ لكَ الشّبا بَ، كأنّه الزَّهَرُ النّدي)[1]

وقوله:

(وطني، وإنَّ القلبّ يا وطـــــني بحبِّكَ مُرتَهَنْ
لا يطمئِنُّ، فإنْ ظفِرْ تَ بما يُريدُ لكَ اطمأنْ)[2]

[1] المصدر نفسه: ص63.

[2] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص63.

تظهرُ الأبيات أنَّ التَّركيب الإضافي (وطني) قد شارك في سياقه الشِّعري بالدِّلالة على تفاؤل إبراهيم طوقان في البيت الأوّل، وأدى في البيتين الأخيرين دورًا دلاليًا مهمًا تمثَّل في إبراز ما يكنّه من حبٍّ صادقٍ لوطنه.

وقد انتظمت في المتن اللُّغوي للقصيدة ألفاظٌ كثيرةٌ انضوت ضمن حقول دلاليّة مختلفة إلَّا أنَّ ما يهمُّ في هذا السِّياق هو الإشارة إلى العلاقة الدَّلاليّة القائمة على التَّضاد والّتي تجلّت في حقلَيْ التَّفاؤل والتَّشاؤم، ما أفاد في تجسِّيد الصِّراع بين المخلصين للوطن ومن وصفهم الشّاعر بالمرجفين والمشاغبين، ويمكن توضيح ذلك في الجدول الآتي:

المخلصون \ تفاؤل		المرجفون ـ المشاغبون \ تشاؤم	
ما ضلّ ذو أمل سعى	بيت رقم 4	الشّؤم	بيت رقم10
أملٌ يلوح بريقه	بيت رقم 20	التَّشاؤم	بيت رقم 17
الأمل الكبير	بيت رقم 36	الغراب	بيت رقم 18
التَّفاؤل	بيت رقم 39		
أمل الغد	بيت رقم 41		

وتفرّع عن حقلَيْ التَّشاؤم والتَّفاؤل دلالاتٍ مختلفةً أبرزَها الشَّاعر بوساطة مفردات محكومةٍ بعلاقات دلاليّة تمثَّلت في:

1- **علاقة التَّضاد:** (يباع ـ يشترى) ، (لم يقم ـ يقوم)، (لا يطمأن ـ اطمأن).

2- **علاقة الاشتقاق:** (توهمت ـ الوهم)، (السُّقام ـ فأسقمَ) ، (وهنتَ ـ الوهن)، (سنتكم ـ سنن).

3- **علاقة الاشتمال:** (الغراب ـ نعيقه)، (الرِّدى ـ الكفن).

4- **علاقة الترادف:** (نزاع ـ شقاق) ، (المودة ـ التَّآلف).

أدت هذه العلاقات الدَّلالية دورًا مهمًا في تعزيز الصِّراع بين موقفَيْ (المخلصين/ المتفائلين) و(المرجفين المشاغبين / المتشائمين)، وتأكيده من جهة، وفي تجسّد رفض الشَّاعر وإنكاره الرُّؤية التَّشاؤمية للواقع السِّياسي في فلسطين من جهةٍ أخرى.

وما يمّيز الشِّعر الوطني لدى إبراهيم طوقان هيمنة الحقول الدَّلالية الّتي تشي ألفاظها ببروز النِّزعة التَّشاؤميّة مثل حقل(الموت، والظُّلم، والحزن) إلَّا أنَّ ذلك لم يحل من دون تفاؤل الشَّاعر، فقد جسَّدت قصائده مقولاتٍ فكريّة تدلُّ على تفاؤله الّذي تجلَّى في المستوى الدَّلالي من خلال دعوته إلى الدِّفاع عن الوطن، والتَّضحية بالرّوح والدَّم لتخليصه من نير الانتداب وظلمه، فضلًا عن تمجيده للشهادة بوصفها طريقًا يؤدي إلى التَّحرير والنَّصر، وقد برزت تلك المقولات بوساطة حقول دلاليّة ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بمفهوم الوطن، ممَّا أفضى إلى تشكيل ثنائيات، تمثَّلت في ثنائية: (الوطن\ الشَّهيد)

(الوطن \ الجمال)

(الوطن \ الاحتلال)

وقبل تناول هذه الثّنائيات لابدَّ من الإشارة إلى بعض الحقول الدَّلالية الّتي شاركت في تشكيل تلك الثُّنائيات.

أولًا: حقل الموت:

تنوعت المفردات الدالة على حقل الموت وذلك وفق الجدول الآتي:

المفردات الدالة على حقل الموت	عنوان القصيدة	أرقام الصفحات في الديوان
طعن،سكينهم، الوغى، جراحك، دمي، سحقهم، المدفن، سيف	يا موطني	22-21
السيف، المنايا، زنادا، قتلت، بادت	يا سراة البلاد	23
الزلزال، قبور، الموت، اغتيال، الحرب، قتال، المنون، الردى	كارثة نابلس	44-43
دمك، نعى، الردى، الكفن	تفاؤل وأمل	62-61

موتك، قبرك	إلى بائعي البلاد	91
دم، الشهداء، الدماء، الموت، الحِمام.	البلد الكئيب	103-102-101
الموت، شيعوه، قبر، أشياع	رثاء نافع العبوشي	111
الحرب، الدم، السيف	موسم النبي موسى	121
كفنًا، الردى، الدماء، يقتله	الفدائي	128-127
الموت، دمًا، الفناء، القبور، السيوف، الرماح، المنية، تضحية، ضحية، موتك، العزاء، الشهيد، الموت، الردى.	الثلاثاء الحمراء	134-133-132-131
قبور، موتاها، المقاتل، المثقفات، قناها	يا رجال البلاد	188-187
جهادك (مرتين)، خندق	ورد يغيض وهجرة تتدفق	195
الشهيد، الردى، الكفن، الموت.	الشهيد	202-201
الموت(مرتين)، رفات، الميت،	رثاء الشيخ سعيد الكرمي	244-243
المنية، الوغى، السيوف	رثاء أبي المكارم عبد المحسن الكاظمي	251

يتضح من خلال الجدول النقاط الآتية:

1- وردت المفردات الدَّالة على حقل الموت في قصائد تناولت ظاهرة طبيعية مثل الزِّلزال في قصيدة (كارثة نابلس) ما أفاد في تصوير آثار الزلزال، ووصف الفاجعة، وعمق المأساة، وهذا ما أفضى إلى تجلي البعد الإنساني الّذي اتَّضحت ملامحه في قول إبراهيم طوقان:

(قد رأينا في لحـظةٍ وسمعنـا كيف تلهو المنونُ بالآجال.

ههنا نِسْوةٌ جيـاعٌ بلا مأ وَى سترن الجسـوم بالأسـمال

ههنا أُسـرةٌ تُهاجر والغـمُّ بديلُ الأثاثِ فـوق الرّحـال

ههنا مــبتلى بفقـد ذويـــــه ههنا مُعـدِمٌ كثيرُ العِيـــــال

ملأ الحزنُ كلَّ قلبٍ وأودتْ ريحُ يأسٍ بنضرةِ الآمـــــال)[1]

2- أدى غرض الرِّثاء دورًا مهمًا في بروز حقل الموت، وهذا ما تجلَّى في رثاء نافع العبوشي، ورثاء سعيد الكرمي[2]، أما فيما يخصُّ قصيدة (ورد يغيض وهجرة تتدفق) في رثاء موسى كاظم باشا الحسيني فقد انعدمت فيها المفردات الدَّالة على حقل الموت لحرص الشَّاعر على ذكر خصال الحسيني ومآثره، وعلى إبراز خوفه من تشتت النَّاس بعد وفاة شخصية الحسيني الوطنيَّة، واختلافهم على من سيخلفها في رئاسة اللّجنة التنفيذيّة الّتي كانت توجّه الحركة الوطنيّة في فلسطين[3]، وهذا ما عبَّر عنه الشَّاعر صراحةً بقوله:

(وطني أخافُ عليكَ قومًا أصبحوا يتساءلون: مَنِ الزّعيمُ الأليقُ؟

لا تفتحـــوا بابَ الشِّقـــاقِ فإنّـــهُ بابٌ على سُود العواقبِ مُغلَقُ)[4]

وعلى الرُّغم من ذلك، فإنَّ أبرز ما يجسِّد القيمة الفنيّة للقصيدة أنَّ الشَّاعر لم يكتفِ بتصوير حزنه على وفاة (الحسيني)، بل عَمدَ إلى جعل مصيره مرتبطًا بمصير الشَّعب الفلسطيني، ما يبرزُ مكانة المرثي وقيمته الوطنيّة.

3- وظّف الشَّاعر إبراهيم طوقان حقل الموت في تمجيد الشَّهادة لارتباط هذا الحقل بمفهوم الشَّهادة ارتباطًا وثيقًا.

ثانيًا: حقل الظُّلم:

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص44.

[2] ينظر: المصدر نفسه: قصيدة (رثاء نافع العبوشي): ص111، قصيدة (رثاء سعيد الكرمي): ص243.

[3] هامش الديوان، إبراهيم طوقان، إحسان عباس، ط1، دار القدس، بيروت-لبنان،1975م، ص141.

[4] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص195.

ارتبطت المفردات الدَّالة على حقل الظُّلم بالواقع السِّياسي الّذي تجلَّى فيما عاشه الشَّاعر إبراهيم طوقان من جور الانتداب البريطاني، وتدفق هجرة اليهود إلى فلسطين، فضلًا عمَّا شهده من فسادٍ لدى بعض السِّياسيين أو من وصفهم بالسَّماسرة الّذين انشغلوا بالتَّفكير في مصالحهم الشَّخصية على حساب المصالح الوطنية، واستنادًا إلى ذلك سوف نذكر في الجدول الآتي القصائد الوطنيّة الّتي برزت في متونها اللُّغوية المفردات المنضويّة ضمن حقل الحزن:

المفردات الدّالة على حقل الظُّلم	عنوان القصيدة	أرقام الصفحات في الديوان
انتداب، تخدعون، جناة، فسادا، استعبادا	يا سراة البلاد	23
احتلال	كارثة نابلس	45
خدّاع، جنيتَ	إلى بائعي البلاد	91
الظُّلم، الظَّالمين، يخدعنك	البلد الكئيب	101
مظلما، بغيهم	الفدائي	128
الباغية، جورها، السَّفاح، أظلما، الجائرة، ظلم، الخداع	الثُّلاثاء الحمراء	132-131
الضِّيم	اشتروا الأرض تشتريكم من الضِّيم	163
ظلما	ورد يغيض وهجرة تتدفق	196
طغى، الأذى	الشَّهيد	201
تخدعوا، الاحتلال، الغاصبين.	فلسطين مهد الشهداء	206-205
إبليس	السَّماسرة	217
انتدابه، احتلاله	أيها الأقوياء	219
الظَّالم، الباغي، اللِّص، الجاسوس، مستعمرون، استعمار	يا حسرتا	235

أدت المفردات الدَّالة على حقل الظُّلم دورًا وظيفيًا مهمًا في السِّياق الشِّعري، إذ وظَّفت للتعريض بظلم الاحتلال البريطاني، وخيانة بعض الزُّعماء السِّياسيين وتخاذلهم، يقول إبراهيم طوقان:

(مُنذُ احتلالِ الغاصبـــي نَ، ونحنُ نبحثُ في السِّياسهْ

فإلى متّى يا ابنَ البِلا دِ، وأنتَ تُؤخذُ بالحمـــاسـهْ؟

وإلى متّى (زعماءُ) قَوْ مِكَ يخلبونـــكَ بالكياســهْ؟

ولكم أحَطْنَا خائنـــًا منـــهم بهالاتِ القَداســهْ

ولكم أضاعَ حقوقَـــنا الرَّ جلُ الموكَّل بالحِراســه)[1]

إنَّ القيمة الدَّلالية لحقل الظُّلم (احتلال، الغاصبين، أضاع حقوقنا) تتمثّل في علاقة مفرداته مع غيرها من عناصر البنيّة الشِّعرية الّتي شاركت في كشف المفارقة المتجسِّدة في أنَّ الظَّالمين هم الزُّعماء الَّذين يُفترضُ بهم أنْ يصونوا ويحموها من ظلم الاحتلال إلَّا أنَّهم عوضًا عن ذلك، أضاعوا حقوق الشَّعب الفلسطيني، ولذلك لم تخلُ المفارقة من سخرية أبرزَها السِّياق الشِّعري الّذي أفادَ معنى مناقضًا للدَّلالة المعجمية لمفردة (الزُّعماء).

وأفادت المفردات الدَّالة على حقل الظُّلم في سياقها الشِّعري في إعلاء قيمة الشَّهادة، إذ وظَّفها الشَّاعر في قصائدَ (الفدائي، والثُّلاثاء الحمراء، والشَّهيد) لتشكل حافزًا للمناضلين لتقديم حياتهم لإحقاق الحق، ورفع الظُّلم عن بلادهم، وفي ذلك يقول إبراهيم طوقان:

(لا تلوموه، قد رأى منـهجَ الحقِّ مُظلما

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص206.

وبـــلادًا أحبَّهـــا ركنُها قد تهدَّمـــا)[1]

ثالثًا: حقل الحزن:

وردت المفردات الدَّالة على حقل الحزن في القصائد الآتية وفق ما يبيّنه الجدول:

المفردات الدّالة على حقل الحزن	عنوان القصيدة	أرقام الصفحات في الديوان
بائس، دموع (3مرات)، الثَّكلى، أبكى، الأسى، الحزن، يأس، الكروب، الكرب	كارثة نابلس	45-44-43
غمّكَ، الكئيب	البلد الكئيب	101
همومه، اليأس	الفدائي	128-127
عبوس، أبكى، حسرتا، شاكٍ، دمعة، العزاء، تبكي، شكوى	الثُّلاثاء الحمراء	135-134-133-132-131
مفجوعة، الأسى، دموعي، اليأس، دموعًا، بكاها، بكاء	يا رجال البلاد	187
حسرة، عبرة، الشَّكوى.	ورد يغيض وهجرة تتدفق	196
دمعة	الشَّهيد	201

وظَّفَ إبراهيم طوقان المفردات الدَّالة على حقل الحزن في سياقٍ شعري تمحور حول دلالتين مهمتين، هما:

1- تصوير المعاناة، وهذا ما تجسَّد في قصيدة (كارثة نابلس).

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص128.

2- تصوير الواقع السِّياسي المزري لفلسطين، وهو واقعٌ تمخضَ عن الانتداب البريطاني وما تبعه من ظلم وعدوان، وعن اهتمام طبقةٍ من السّياسيين وصفهم الشَّاعر بالسماسرة أو (الدَّلالين) بمصالحهم الشَّخصية على حساب قضية الوطن، ومنه قول إبراهيم طوقان فيهم:

(كلّما أوشكتْ تسيلُ دمـــوعـي ملــكَ اليأسُ غَرْبَها فثناهـــا

لا تلمني، فكــم رأيتُ دمـــوعًا كاذباتٍ ضحكتُ ممّن بكاها

قد سقى الأرضَ بائعوها بكاءً لعَنَتْهـُمْ سهــولُها ورُبــاهـــا

وطني مُبْتلَى بعُصبةِ (دَلَّالينَ) لا يتـَّـقـــــون فيـــه اللـَّـهَ

في ثيـــابٍ تُريــكَ عِزًّا ولـــكنْ حَشوُها الذّلُّ والرِّياءُ سَدَاهــا)[1]

تشي هذه الأبيات بنبرة حزنٍ واضحةٍ تبدت في سياق شعري، وانتظمت فيه بعلاقات دلالية، مثل علاقة التَّضاد في قوله: (ضحكت من بكاها) و(عزّا ـ الذل) وعلاقة الاشتمال الّتي تجسَّدت في دلالات الألفاظ الّتي تستدعي دلالات ألفاظ أخرى مثل (دموعي، اليأس، بكاها...) فضلًا عن علاقة الاشتقاق الّتي برزت في الاستعانة بصيغ مختلفة.

واستنادًا إلى ذلك، فإن القيمة الدلاليّة الّتي أبرزها حقل الحزن تتمثَّل في حسن انتظام مفرداته في السِّياق الشِّعري، وفي ارتباطها بعلاقات دلالية شاركت في إبراز حزن الشَّاعر وألمه على ما أصاب البلاد.

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم طوقان، ص187.

وبناء على ذلك، يمكن القول بأنَّ الحقول الدَّلالية للموت، والظُّلم، والحزن قد شاركت في تشكيل ثنائيات دلالية مهمة مع مفهوم الوطن، وقد تمثّلت هذه الثَّنائيات فيما سيأتي:

1- الوطن / الاحتلال:

تعد ثنائية الوطن / الاحتلال من أبرز الثُّنائيات الّتي تجلَّت في القصائد الوطنية من خلال ما تفرعت عنه الألفاظ المنضوية في الحقول الدَّلالية من معانٍ ودلالات، منها دلالة الظُّلم المنبثق عن الاحتلال، ودلالة الحق المتمثِّلة في عدالة القضية الفلسطينية وحق الشَّعب الفلسطيني في الدِّفاع عن وطنه، وقد برزت هاتان الدَّلالتان في قول إبراهيم طوقان في قصيدة (الشَّهيد):

(عبسَ الخطبُ فابتسمْ وطغى الهولُ فاقتحمْ

رابطَ الجـــأشِ والنُّهى ثابتَ القلبِ والقـــدمْ

لـم يُبـالِ الأذى ولـم يَثْنـِهِ طـــارئُ الألـــم)[1]

تتضمّن هذه الأبيات الثَّلاثة مفرداتٍ وتراكيب تبرز ثنائية الوطن \ الاحتلال وما يتفرع عنها من دلالات ضدية يبينها الجدول الآتي:

الوطن / الحق	الاحتلال / الظلم
ابتسم	عبس الخطب
اقتحم	طغى الهول
رابط الجأش والنّهى	الأذى
ثابت القلب والقدم	طارئ الألم
لم يبالِ	
لم يثنه	

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص202.

إنَّ دلالات الألفاظ والتَّراكيب تشي بصراعٍ بين المناضل الّذي يجسِّد القيمة الوطنية بما يحمله من خصالٍ تبين شجاعته وعزيمته و المحتل الّذي تجلَّت صورته من خلال الدَّلالة التَّركيبية (عبس الخطب)، (طغى الهول) فضلًا عما تحيل إليه مفردات (الأذى، الألم) من دلالاتٍ تتعلق بصورة المحتل، وهذا كلّه قد أفضى إلى تشكيل ثنائية الوطن / الاحتلال.

وبرزت ثنائية الوطن / الاحتلال في قول إبراهيم طوقان في قصيدة (يا موطني):

(يا موطنًا قرع العداةُ صفاتهُ أشجيتَني ومـــــن الرقاد منعتــني

يا موطنًا طعن العداةُ فـؤادَهُ قد كنتَ من سِكّينهم في مأمن) [1]

تظهر في هذين البيتين مفرداتٌ دالةٌ على الوطن (موطنًا) وأخرى دالةٌ على الاحتلال مثل (قرعَ، العداة، طعنَ، سكينهم) وهي مفرداتٌ تجسّد ما يرتكبه المحتل من جرائم وفظائع.

2- الوطن / الخيانة:

شاركت الحقول الدَّلالية في المتون اللُّغوية للقصائد الوطنيّة ولاسيِّما دلالتَيْ الظُّلم والحزن في تشكيل ثنائية (الوطن / الخيانة)، إذ برزت فئة من الشَّعب الفلسطيني لم يشغلها ما يحاك ضد وطنها من مؤامراتٍ، وفضلت السَّعي نحو مآربها الشَّخصيّة، وقد خصَّ الشَّاعر إبراهيم طوقان هذه الفئة بعددٍ من القصائد[2] مثل قصيدة (إلى بائعي البلاد) وقصيدة (اشتروا الأرض تشتريكم من الضّيم) و قصيدة (السَّماسرة) وقصيدة (أيها الأقوياء) وغيرها من القصائد الّتي تجلَّت فيها ثنائية (الوطن /

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص21.

[2] قصيدة (إلى بائعي البلاد): ص91، و(اشتروا الأرض تشتريكم من الم): ص163، و(السماسرة): ص217، و(أيها الأقوياء): ص219. ينظر: المصدر نفسه.

الخيانة) بواسطة السُّخرية الّتي تجسَّدت من خلال ما حملته بعض الألفاظ من دلالات مغايرة للدلالة الأصلية أو المعنى المعجمي الأوَّلي، كما في قول إبراهيم طوقان في قصيدة (أنتم):

(أنتمُ (المخلصون) للوطنيّهْ أنتمُ الحاملون عبء القضيّهْ !

أنتمُ العاملون من غير قولٍ! باركَ اللهُ في الزّنــود القويّهْ!

(وبيانٌ) منكم يعادلُ جـيشًا بمُـعدّاتِ زحـفــه الحــربيّهْ..

(واجتماعٌ) منكم يَرُدُّ علينــا غابـرَ المجدَ من فتوحٍ أُميّهْ..

وخلاصُ البلادِ صار على البا ب، وجــاءت أعيـادُه الورديّــهْ

ما جَحدنا (أفضالَكم) غيرَ أنَّا لــم تزلْ في نفوسنــا أُمنيَّهْ:

في يــَدَيْنا بقيّةٌ مــن بــلادٍ فاستريحوا كيلا تطيرَ البقيّهْ)[1]

إنَّ مفردتي (المخلصون) و (أفضالكم) لا يراد بهما المعنى المعجمي، بل يَقصد بهما دلالتان مختلفتان عن معناهما الأصلي، وهذا ما يُفهم من خلال السِّياق الشِّعري، ومن خلال حِرص الشَّاعر على حَصر اللَّفظين ضمن قوسين للإيحاء بالسُّخرية من بعض الزُّعماء الفلسطينيين الّذين أضروا القضية الفلسطينية أكثر ممَّا أفادوها لانشغالهم بمصالحهم الشَّخصية، مكتفين بالأقوال من دون الأفعال، وهذا أفضى إلى تشكيل مفهوم الخيانة الّذي تجلّى فيما أضفاها الشَّاعر على هذه الفئة من نعوتٍ وصفاتٍ قدمها بأسلوب ساخر، وهذا ما يشارك في تجلية ثنائية الوطن الّذي يمثّله موقف إبراهيم طوقان والخيانة المتجسّدة في سلوك الفئة الّتي خصَّها الشَّاعر بنقده وسخريته.

[1] المصدر نفسه : ص231.

وقد برزت هذه الثُّنائية أيضًا في قصيدة (ياحسرتا) كشفت عن حزن الشَّاعر ومعاناته ممَّا ابتلي به الوطن من سماسرة ولصوص، يقول:

(يا حسرتا، ماذا دهى أهلَ الحِمى؟ فالعيشُ ذلٌّ، والمــصيرُ بَــوارُ

أرأيتَ أيَّ كــرامةٍ كانــتْ لهــمْ واليومَ كيف إلى الإهانة صاروا؟

سَهُلَ الهوانُ على النّفوسِ فلم يعدْ للجرحِ من ألمٍ.. وخفَّ العارُ

همدتْ عزائمُهـم، فلو شبَّتْ لظَى لتـثيرُها فيهــم، فليس تُثـارُ

الظَّالمُ البــاغي يســوسُ أمــورَهم واللصُّ والجاسوسُ والسمسارُ)[1]

إنَّ دلالات الألفاظ الواردة في المتن اللَّغوي للأبيات تكشف عن ثنائية (الوطن والخيانة) من خلال ما تشي به من موقفين متناقضين هما موقف الشَّاعر المتحسِّر على ما ابتلي به وطنه، وهو موقفٌ وطني، وموقفُ من نعتهم بالظُّلم، والبغي، والسَّرقة.

3- الوطن / المقاومة:

كشفت الحقول الدَّلالية ـ ولا سيِّما حقل الموت ـ من خلال دلالات الألفاظ الواردة في متن الشِّعر الوطني عن ثنائية(الوطن والمقاومة) الّتي تجلَّت في القصائد الّتي تغنّى فيها إبراهيم طوقان ببطولات الشَّهيد وتضحياته، وخلوده، وثورته على الاستعمار والظُّلم والطُّغيان، وغير ذلك من الدَّلالات والمعاني الّتي أفضت إلى ترسيخ القيم الوطنية، وتأكيد دور المقاومة وأهميتها في تحرير

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص235.

الوطن، ومن أبرز تلك القصائد نذكر قصيدة (الثُّلاثاء الحمراء) الّتي وثّقَ فيها الشَّاعر إعدام ثلاثة شهداء هم (فؤاد حجازي، ومحمد جمجوم، وعطا الزير)، وفيها يقول:

(أنا ساعةُ الرّجلِ الصّبورِ أنا ساعةُ القلبِ الكبيرِ

رمزُ الثّباتِ إلى النّها يـَةِ في الخطير من الأمـور

بَطـلي أشدُّ على لقـــا ءِ الموتِ من صُمِّ الصُّخور

جـذلان يرتقـــبُ الرّدى فاعجبْ لموتٍ في سرورِ

يَلْقـــى الإلـــه (مُخضّبَ الْـ ـكَفَّينِ) في يومِ النُّشــورِ

صَبرُ الشّبابِ على المصا بِ، وديعتـــي ملءُ الصّـدورِ

أنـــذرتُ أعـــداءَ الـــبـــلا دِ بشرٍّ يـــومٍ مُستـطـيـــر

قسمًا بروحكَ يـا (عطاءُ) وجنّـــةِ المَلِكِ القـديـــرِ

وصِغارِكَ الأشبـــالِ تَبْـ كي اللّيثَ بالدَّمــعِ الغذيرِ

مـــا أنقـذَ الوطـنَ المُفـــدَّى غـيرُ صبّارٍ جـسورِ)[1]

في هذه الأبيات، تحيل صورة الشَّهيد بما تضمَّنته من معانٍ ودلالات مثل (الصَّبر والثَّبات والبطولة...) إلى دلالة المقاومة الّتي تمهد الطَّريق إلى خلاص الوطن من الاحتلال، وقد استعان الشَّاعر بمفردات تؤكِّد دلالة المقاومة وتعززها، وقد تجلَّى ذلك ممَّا استحضره من صفات أضفاها

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص134.

على الشَّهيد فهو صبور، يتمتع بالثبات، ويقتحم المخاطر والصُّعوبات، ويمضي إلى الموت بسرور وفرح، ليعبِّر عن إيمان الشِّهيد بالقضية والاستعداد للشهادة.

وقد أكَّد إبراهيم طوقان في قصيدة (البلد الكئيب) أهمية المقاومة بوصفها سبيلاً يمهد للتخلص من الاحتلال، بقوله:

(بُشراكَ يا وطني فقد نُفِضَ الرقادُ عـن البــلادِ

نـهضتْ بواسلُ فيكَ تَقْذِفُ بالنُّفوسِ إلى الجهاد) [1]

تجسِّد المفردات المنضوية ضمن ثنائية الوطن (يا وطني، البلاد) والمقاومة (بواسل، الجهاد) فكرةً حرصَ الشاعر على ترسيخها في ذهن المتلقي وهي أن دحرَ الاحتلال لا يكون إلَّا بالمقاومة. وعلى ذلك يظهر بأنَّ الوطن والمقاومة تمثِّلان عند إبراهيم طوقان ثنائيةً مهمةً لا يمكن لطرفيها أنْ ينفصلا أبداً.

تلك كانت أبرز الثُّنائيات الّتي تمخضت عنها دلالات الألفاظ في المتن اللَّغوي للشعر الوطني عند إبراهيم طوقان.

ثانيًا: الحقول الدَّلالية في الشِّعر القومي:

برز الانتماء القومي لدى إبراهيم طوقان واضحًا جليًا من خلال ما نظمه من قصائد عُنيت بتمجيد الشَّهادة والشُّهداء، ومدح أعلام الثَّقافة العربية مثل أمين ريحاني، ورثاء رجال السّياسة مثل سعد زغلول والملك فيصل بن حسين، وغير ذلك من القصائد الّتي أبرزت الشُّعور القومي للشَّاعر الّذي عَمدَ إلى توظيف الألفاظ والمفردات المنضويّة ضمن حقولها الدَّلاليّة بما يخدم الغرض الشِّعري، ويؤكّد في الوقت نفسه موقفه الفكريّ وانتماءه القومي.

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص102.

ففي قصيدة (ذكرى حمية أهل الشّام) نجد أنَّ معظم ألفاظها قد انضوت ضمن الحقول الآتية:

1- **حقل الطَّبيعة:** (البحر، الصّخر، الرَّعد، سهلها، الجبالا، شمسنا، شمسها، بدرنا، بدرها، النَّسيم، الزُّهور، تلالا، الطِّير، الشَّمس، البحر).

2- **حقل الوطن:** (أرض، السُّوريتين، الشُّعوب، ميسلون، الأوطان، وطن، الشَّام، البلاد، بيروت...)

3- **حقل الإنسان:** (الجسد، العبد، الطَّليق، الشَّباب، شهيدًا، روحه، الرجال، فتية، أبطالا، الكرام...).

4- **حقل الموت:** (زلزالا، دفين، مات، لا يموت، الدَّم، تضحية، الموت، أباد...)

حكمت هذه الحقول الأربعة علاقاتٌ دلاليةٌ، منها علاقة الاشتمال الّتي تجسَّدت في لفظيّ (البحر ـ أمواجه)، وعلاقة التَّضاد الّتي تمثَّلت في دلالات الألفاظ مثل (شمالاً ـ جنوباً) و (العبد ـ الطليق) و (خفافًا ـ ثقالا) و(مات ـ لا يموت). و برزت علاقة الاشتقاق في (جهادها ـ الجهاد) و (أوطان ـ وطن).

وقد وظّف إبراهيم طوقان هذه العلاقات الدَّلالية في السِّياق الشّعري بما يخدم مضمون القصيدة، إذ أدَّت علاقتا التَّضاد والاشتقاق دورًا مهمًا في إبراز قيمة الشَّهادة، وتأكيد تضحيات الشّهيد وإبائه، يقول:

(لكَ في تُرْبِ "ميسلـــونٍ" دفـينٌ كـــان للذائدين عنك مِثــالا

ماتَ في ميعةِ الشّبابِ شهيدًا وكذا الحرُّ لا يموتُ اكتهالا)[1]

يبرز البعد القومي فيما يحمله لفظ (ميسلون) من دلالةٍ رمزيةٍ تحيل إلى أبرز المعارك الّتي خاضها السُّوريون بقيادة يوسف العظمة ضد الاحتلال الفرنسي، وقد استعان الشَّاعر بهذه الدَّلالة الرَّمزية لإبراز قيمة الشَّهادة، موظّفًا حقل الموت الّذي تجسَّد بوساطة الصفة المشبهة (دفين) *والفعلين

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص16.

* دفين: صفة مشبهة على وزن فعيل منقول عن اسم المفعول مدفون.

المختلفين في زمنهما (مات) و (لا يموت) والمحكومين بعلاقتين دلاليتين أوّلهما تقوم على مبدأ التَّضاد من جهة والاشتقاق من جهة أخرى، فالفعلان متضادان من حيث النَّفي والإثبات، ومختلفان من حيث البنية الصَّرفية، وعلى الرُّغم من تضادهما واختلافهما إلَّا أنَّهما أفادا في سياقهما الشِّعري في إبراز إيجابية الموت، فهو موتٌ له معنى وقيمةٌ لارتباطه بمفهومَيْ الوطن والحرية.

وقد تضافر الحقل الدَّلالي للموت مع الحقول الدَّلاليّة الأخرى في تأكيد البعد القومي الّذي تجسَّد في حديث الشَّاعر عن الشَّام والتَّغني بجمالها، مستعينًا بالألفاظ الدَّالة على حقل الطَّبيعة من خلال توظيفها في إبراز الأثر الّذي تتركه في نفوس أبنائها، فيقدمون دماءهم وأنفسهم في سبيلها، وهذا ما أكّده الشَّاعر في البيت الأخير من القصيدة، يقول:

(يحرسُ اللهُ مجدَنا ما بذلنا في سبيل الأوطانِ نَفْسًا ومالا)[1]

أما في قصيدة (ذكرى دمشق) فقد تضمّنت حقولًا دلاليًا يبرزها الجدول الآتي:

الحقل الدَّلالي	الألفاظ الدَّالة على الحقل الدلالي
الطَّبيعة	غصون، النَّخيل، الرَّيحان، الطُّيور، الشَّجر، الزَّهر، الرَّوابي، الأغصان
الدِّين	الجنان، حور، ملائكة، الله، الخلد، النَّعيم، جزاء، رب، الإيمان
الحزن	البكاء، دمع، دموعي، همي، حزني، أحزانه، الأسى، دموع، أشجاني...
الظُّلم	تستبد، تطغى، التَّنكيل، ظلم، الطُّغيان، الخداع...

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص17.

الإنسان	عروس، النَّدامى، العذارى، ابنة، الشَّباب، ثائر، باسل، طبيب، حضر، بداة، أبناءهم، بني مروان، إخواننا...
الحرب	الجيش، الطَّيران، الوغى، حسامًا، حرب، سيوف، قتالًا.
الموت	الشَّهيد، فان، المنون، راقد، الجثمان.

استنادًا إلى الجدول، فإنَّ الألفاظ المنضويّة ضمن حقولها الدَّلالية قد شاركت في تشكيل رؤية إبراهيم طوقان الّتي تمخضت عن جملة من المعاني والدَّلالات الّتي أبرزَها السِّياق الشِّعري، ويمكن أنْ نستدلّ على ذلك بقول الشَّاعر في المقطع الثَّاني من القصيدة:

(وتجلّـتْ أنــوارٌ مـــنْ مَلَـكَ المُلْكَ، فَخَرَّ الحضورُ للأذقانِ

ثم حيَّا ذاك الشَّهيدَ ونــادى أيّـهذا الشّهيــدُ لســتَ بــفانِ

رضي اللهُ عن جهادكَ فاخلدْ وتَبوّأْ فـــي الخُلدِ أعلى مـكان

وخلودُ النّعـيـمِ عندي جــزاءٌ للذي ماتَ في هوى الأوطــان)[1]

يطغى على هذا المقطع البعد الرُّوحي المتجسِّد فيما تضمّنته الألفاظ والتَّراكيب من دلالات تحيل إلى الثَّقافة الإسلاميّة (أنوار، ملك الملك، الشَّهيد، رضي الله عن جهادك، خلود النَّعيم)، فقد عَمدَ إبراهيم طوقان إلى إبراز قيمة الشِّهيد وتأكيد سموه وعلو منزلته من خلال الإحالة على دلالة الخلود الّتي كرَّرها صراحةً بثلاث صيغ مختلفة، وهي: (فاخلد، الخلد، الخلود) ومجازًا في قوله: (لست بفان).

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص29.

وتحيل دلالة الخلود الّتي أسبغها الشّاعر على الشّهيد إلى الموروث الإسلامي، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[1]. وبرز الموروث الإسلامي في قول الشّاعر: (رضي الله عن جهادك) وقوله: (فخرَّ الحضور للأذقان) إذ يحيل هذا التَّركيب إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾[3]

أما فيما يخصُّ العلاقات الدَّلالية الّتي برزت في هذا المقطع فقد تمثَّلت في:

العلاقة الاشتقاقية: نحو قوله (فاخلد، الخلد، الخلود)، و**العلاقة السَّببية: برزت** في قوله (رضي الله عن جهادك فاخلد) و(خلود النَّعيم عندي جزاء)، و**علاقة التّكرار:** حيث تكرر لفظ (الشَّهيد) مرتين في البيت الثَّاني.

ويظهر الجدول الآنف استعانة إبراهيم طوقان بالألفاظ الدّالة على الطَّبيعة موظفًا إياها في تصوير الجنة الّتي آل إليها الشَّهيد، وفي وصف دمشق، وذلك في قوله:

(يا ربوعَ الفيحاءِ أنتِ عروسٌ أيّمتهـا طـوارقُ الحَدَثـان

الأكاليلُ لم تزلْ غضة الزَّهر ولم تنقطعْ أغاني الغواني

والمغانـــي مأهولـةٌ والرّوابـي باديـاتٌ نواضرًا للعيـــان

[1] القرآن الكريم: سورة آل عمران، (3/ 169).

[2] القرآن الكريم: سورة الإسراء، (15/ 107).

[3] المصدر نفسه: السورة نفسها (109/15).

والنّدامى بين الكؤوسِ قيامٌ رَنّــحتْهم مـُدامـــةُ الغـُــدران

والعـذارى سوافرٌ لاهيـــاتٌ بالأراجيح وَهي في الأغصان)[1]

أما فيما يخصُّ حقل الحزن فقد وظّف الشَّاعر ألفاظه في ثلاثة سياقات مختلفة، وهي:

1- تصوير موت الشَّهيد[2].

2- تصوير ما أصاب الشَّام من ظلمٍ وطغيان بسبب الاحتلال الفرنسي، ومنه قول الشَّاعر:

(يا عروسَ الدّنيا وما حالُ قلب فجعتــهُ أحزانُــهُ بالأمانـــي

الخطوبُ اللائي نـزلنَ جِسـامٌ قد أحلنَ الهَنا إلى أحزانِ

والأسى في الضلوع أشبهُ شيءٍ بكِ لمـــا قُذِفــتِ بالنيـران)[3]

3- ذم المتقاعسين والقاعدين عن الجهاد في فلسطين المحتلة، ويمثّل هذا السِّياق البعد الوطني الّذي أحسنَ الشَّاعر الانتقال إليه بعدما خلصَ من تمجيد بطولات أبناء الشَّام، وفيه يقول:

(إيهِ روحَ الشّهيدِ زُوري فِلسطيـنَ وطُوفي قدسيّةً بالمغاني

وانزعي من صدورنا جمرةَ الحِقْدِ وسـُـلّي سجـيّةَ الشَّنَـــآن

هـَـمُّ إخـواننا الجهـادُ وأضـــحى همُّنـا في مجالسٍ ولجان)[4]

ثم يقول:

---

[1] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص30.

[2] ينظر: المقطع الرابع من القصيدة، الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص30.

[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[4] المصدر نفسه: ص 31.

(فاتّقوا الله واذكروا نـهضةَ الشَّامِ وخُصّوا العدوَّ بالأضغان)[1]

تتمثّل شعرية هذا السِّياق في توظيف الألفاظ الدَّالة على الحزن فيما يخدم رؤية الشَّاعر المتمثّلة في رفضه الواقع السِّياسي في وطنه، محاولًا إثارة همم شعبه من خلال التَّذكير بنهضة أهل الشَّام، ما يشارك في تجسّيد البعدين الوطني والقومي في آنٍ معًا.

أما الألفاظ المنضوية ضمن حقل الحرب فقد وظّفها الشَّاعر إبراهيم طوقان في تجسِّيد الصِّراع بين أبناء الشَّام والمحتل الفرنسي، وقد تمخض هذا الصّراع عن ثنائيات في المستوى الدَّلالي من أهمها، ثنائية الحق والباطل، وثنائية المقاومة والاحتلال.

ويتَّضح ممَّا سبق أنَّ الحقول الدَّلالية قد ارتبطت فيما بينها ارتباطًا وثيقًا في بنية القصيدة، وتضافرت ألفاظها المحكومة بعلاقات دلالية مختلفة في تشكيل دلالة النَّص بوصفه وحدة دلاليّة كبرى جسَّدت الانتماء القومي للشَّاعر، وكشفت عن التزامه بقضايا أمته.

وقد برزت النَّزعة القومية لدى الشَّاعر إبراهيم طوقان في قصيدة (تحية مصر) بما تضمَّنه متنها اللَّغوي من دلالات جسَّدت القيمة الثَّقافية والحضارية لمصر من خلال الإشارة إلى إرثها التَّاريخي في قوله:

(تحيّةٌ لكِ يا مصرَ الفراعـينِ ذوي المآثرِ من حيٍّ ومدفونِ

ولم تزلْ دوحةُ الآدابِ وارفةً على جوارِكِ خضراءَ الأفانين)[2]

يحيل لفظ (الفراعين) إلى التَّاريخ المصري القديم، ويستدعي إلى الذُّهن منجزات الحضارة الفرعونية، وتشي العلاقة الضِّدية بين لفظَيْ (حي ومدفون) بدلالةٍ تبيّن أنَّ التَّاريخ الحديث لمصر

[1] المصدر نفسه: ص 32.

[2] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص145.

لا يقل أهمية عن تاريخها القديم. وتؤدي هذه العلاقة الضِّدية دورًا دلاليًا مهمًا يتمثّل في إضفاء الشُّمولية على المعنى، وهو أنَّ مصر بلدٌ عريقٌ في حاضرها وماضيها، وما يدعم هذا المعنى ويؤكِّده ما يحمله البيت الثَّاني من دلالات، إذ أفاد التَّركيب المؤلّف من الفعل النَّاقص واسمه وخبره (لم تزل) دلالة ديمومة الحضارة المصرية واستمراريتها وتجدّدها، وقد عزّزَ هذا المعنى لفظٌ دالٌّ على اللَّون (خضراء) الّذي أفادَ في سياقه دلالةً تشي بالحياة والنَّضارة.

وقد شاركت الألفاظ الدَّالة على العلمية مثل (أم كلثوم) في تأكيد دلالة ديمومة الإرث الثَّقافي لمصر، يقول إبراهيم طوقان:

(ما لي وللسَّقْم أخشاه وأسألُ عـــن طبيبه (وعمادُ الدينِ)[1] يشفيني

لو أنشب الموتُ بي أظفارَه لكفى بـــأمُّ كلثـومَ أن تـشدو فتُحـييني)[2]

تنزاح في هذين البيتين بعض الألفاظ عن دلالتها الأصلية لتؤدي دلالاتٍ مختلفة يكشفها السِّياق الشِّعري، فلفظ (عماد الدين) لا يدلّ على اسم الطَّبيب، وإنَّما هو اسمٌ لشارعٍ في مصر، وقد قصد الشَّاعر في استعماله السِّياقي إبراز أثر المكان (مصر) في نفسه، إذ يكفيه السَّير في شارع (عماد الدين) ليبرأ من علته، وغناء (أم كلثوم) يردّه إلى الحياة إذا ما أصابه الموت، وبناءً على ذلك يَظهرُ بأنَّ الشَّاعرَ قد تعمّدَ استعمال الألفاظ بغير دلالتها الأوَّلية لغايةٍ بلاغية لم تخلُ من مبالغة وغلو.

نتائج البحث

خلص البحث إلى جملة من النَّتائج لعلَّ من أبرزها:

[1] شارع الفنون الجميلة في مصر، ينظر: ديوان إبراهيم طوقان، هامش، ص110.

[2] الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، ص146.

1- برزت الحقول الدَّلالية للموت والظّلم والحزن في معظم القصائد الوطنية في شعر إبراهيم طوقان، ولعلَّ مردّ ذلك إلى الأوضاع السّياسيّة التي عاشها الشَّعب الفلسطيني بسبب الانتداب البريطاني وتدفق اليهود إلى فلسطين.

2- حضور ثنائيات مثل ثنائية الوطن والاحتلال، وثنائية الوطن والخيانة وثنائية الوطن والمقاومة، وهي ثنائيات توحي بالتحام الشاعر بوطنه، ومعايشته آلامه، وتوحي كذلك بألمه من المتاجرة بقضية الشعب الفلسطيني، وكثرة الخائنين والطاعنين فيه.

3- أفادت علاقة التّضاد بين حقليْ التفاؤل والتّشاؤم في إبراز الصّراع بين المخلصين للوطن والمرجفين.

4- وظّف الشَّاعر إبراهيم طوقان في قصائده القوميّة المفردات المنضوية ضمن حقل الحرب في تجسيد الصِّراع بين المحتل الفرنسي وأبناء الشّام، وذلك في قصيدته (ذكرى دمشق).

5- أدت الحقول الدَّلالية في قصيدة (تحية مصر) دورًا مهمّاً في إبراز النِّزعة القرمية للشَّاعر، فضلًا عن دورها في إبراز القيم الثَّقافية والحضارية للشعب المصري.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب السماوية.

1- القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر:

2- الديوان، إبراهيم طوقان، إحسان عباس، ط1، دار القدس، بيروت-لبنان،1975م.

3- الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم: طوقان، د.ت.ط، كلمات عربية للنشر، مصر.

4- لسان العرب: جمال الدين ابن منظور، ط3، دار الصادر -بيروت،1994م.

5- معجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط5، مكتبة الشروق الدولية،2011م.

6- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبه-كامل المهندس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.
7- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
8- مفتاح العلوم: السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، 1987م.
9- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تح: عدنان درويش-محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت، فصل(الضاد).

ثالثاً: المراجع:

1- أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية: أحمد عزوز، اتحاد الكتاب العرب- دمشق، 2002م.
2- التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه: كريم زكي حسام الدين،ج1، ط1،، دار غريب، القاهرة، 2000م.
3- التعريفات: الشريف الجرجاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.
4- حياته ودراسة فنية في شعره: إبراهيم طوقان، محمد عبد الله، ط1، مؤسسة البابطين للإبداع الشعري، 2002م.
5- المجاز وأثره في الدرس اللغوي: محمد بدري عبد الجليل، ط1، دار النهضة العربية، بيروت،1980م،
6- علم الدلالة: أحمد مختار عمر، ط1، عالم الكتب، القاهرة ، 1988م.
7- علم الدلّالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: منقور عبد الجليل، ط1، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ـ سورية، 2001م.

رابعاً: الرسائل الجامعية:

1- المتن اللغوي وتشكيلاته الدلالية في النص الشعري عند نزار قباني: هايل الطالب، رسالة دكتوراه بإشراف: رضوان القضماني، جامعة البعث، حمص، 2004م.